

الزاعى والمخالة



الراعى و الخالة

روت عزة بنت أبى قرصافة ، أنها سمعت جدّها أباً قرصافة صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : كان بدء إسلامى أنى كنت يتيما بين أمى وخالتى . وكان أكثر ميلى إلى خالتى . وكنت أرعى شويهاً لى . وكانت خالتى كثيراً ما تقول لى: يا بنى ، لا تمرّ إلى هذا الرجل ؛ تعنى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيغويك ويضلك فكنت أخرج حتى أتى المرعى ، فأترك له شويهاً ، ثم أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فلا أزل عنده ، أسمع منه ، ثم أروح بغنمى ضمراً ، يابسات الضرع .

وقالت لى خالتى : ما لغنمك يابسات الضرع !؟

قلت ما أدرى ، ثم عدت إليه اليوم الثانى ، ففعل كما فعل فى اليوم الأول ، غير أنى سمعته يقول: "أيها الناس..هاجرى! وتمسكوا بالإسلام، فإن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد". ثم إنى رجعت بغنمى كما رجعت فى اليوم الأول ، ثم عدتُ إليه فى الثالث ، فلم أزل عند النبى - صلى الله عليه وسلم - أسمع منه حتى أسلمتُ وبايعتُ ، وصافحته بيدي ، وشكوت إليه أمر خالتى ، وأمر غنيماتى ، فقال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : "جئنى بالشيء" فجئتُه بهن ، فمسح ضررهن و ظهورهن ، ودعا فيهن بالبركة ، فامتألت شحماً ولبناً ، فلما دخلت على خالتى ، قالت : يا بنى ..هكذا فارح .

قلت : يا خاله ، ما رعيت إلا حيث كنت أرعى كل يوم ، ولكن أخبرك بقصتى وأخبرتها بالقصة، وإتيانى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخبرتها بسيرته وبكلامه ، فقالت أمى وخالتى :

أذهب بنا إليه ، فذهبت أنا ، وأمى وخالتى فأسلمنا ، وبايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصافحناه ، فهذا ما كان من إسلام أبى قرصافة وهجرته إلى النبى - صلى الله عليه وسلم . (أخرجه الطبرانى . و أبو نعيم) .

.....

هذه قصة إسلام الصحابى الجليل ، جندرة بن خيشنة ، المكنى بأبى قرصافة - رضى الله عنه - وهى تكشف عن منقبته وبيان فضله بوصفه واحداً من الرعيل الأول فى مدرسة النبوة الذين هداهم الله إلى الإسلام ، فاعتنقوه ، بعد سماع دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - وتدبرها وتأملها ، ولم يمنعهم عن الإسلام مانع من تخويف أو تهديد أو تحذير . والقصة مع بساطتها ، تمثل نمطاً من القصص النبوى الشريف الذى يبدو فيه التشويق واضحاً من خلال الأحداث المتتابعة التى تقودنا إلى المعزى النهائى للقصة وتطلعنا على واقع قائم فى الحياة الجاهلية، يغيّر الإسلام بالدعوة والعمل والإخلاص .

إننا هنا أمام شخصية رئيسة ، هي شخصية جندرة بن خيشنة ، ذلك الراعى البسيط الذى يرمى عدة شياه قليلة يخاف عليها لأنها كل ممتلكاته أو ممتلكات خالته التى تربيته وتغدق عليه محبتها وحنانها ، وهى لخوفها عليه وشدة حبها ، تحذر من الذهاب أو الاستماع إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يفتنه فى عقيدته ، أو يغيرها ، ولكن حب الاستطلاع والمعرفة يدفعانه إلى الذهاب إلى الرسول الكريم والاستماع إليه ، وترك غنماته فى المرعى ترعى بمعرفتها وبأسلوبها دون أن يكون معها ..

يستمتع جندرة أو أبو قرصافة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيجد فيما يستمع إليه شيئاً جديداً غريباً لم يألفه من قبل ، فيكرر المحاولة فى اليوم التالى ، ويرى أن الرسول الكريم يحث على الهجرة ، والتمسك بالإسلام ..

هنا يقف جندرة فى مأزق مع خالته ، فهو يرمى الشياه ، ولكن الشياه بسبب ذهابه إلى النبى تضمر وتجف ضرءها ، مما يعنى أن اللبن يقل ، وأن قيمة الغنمات تقل أيضاً فتسأل الخالة ابن اختها جندرة : ما لغنمك يابسات الضرء؟

والسؤال عن جفاف الضرء هنا مسألة مهمّة . لأن لبن الشياه هو الغذاء الرئيسى الذى تعتمد عليه الخالة و جندرة طعاماً أو غذاء .

وتكون إجابة جندرة : ما أدرى ؟ إنه لا يريد أن يبوح بالسّر الذى جعل الغنمات تيبس وتجف ضرءها ، وهو إهمالها ، وذهابه إلى النبى الذى حذرته من الذهاب إليه .
و حين يعتنق جندرة الإسلام ، يشكو إلى النبى ما جرى لغنماته وأمرخالته ، فإذا به - صلى الله عليه وسلم - يدعو بالبركة بعد أن يمسح ضرءها وظهورها ، فتتمتلئ الغنمات شحماً ولبناً .

هذا الموقف الذى غير حال الغنمات ، يكون له صداد وردّ فعله ، لدى الخالة والأم معاً فيقولان اذهب بنا إليه .

إن الأم والخالة مأخوذتان بالتعبير الذى جرى للغنمات ، لأنه ليس تغييراً تلقائياً أو عشوائياً أو اعتباطياً ، ولكنه جاء بعد دعاء الرجل الذى حذرته الخالة ابن اختها من الذهاب إليه ، والاستماع له .

وعند النبى - صلى الله عليه وسلم - تسلّم الخالة والأم ، و يدعمان بالضرورة إسلام أبى قرصافة ، ويدخل الرجل إلى مدرسة النبوة ليكون صحابياً جليلاً ، ومجاهداً بقلبه وروحه فى سبيل الدعوة بوصفه من الأوائل الذين سبقوا وآزروا .

ومن المؤكد أننا نلاحظ هنا طبيعة العلاقة الإنسانية بين الأقارب ، فابن خيشنة هذا الصحابي الجليل ، يفضل خالته على أمه ، وهويتيم . إن اليتيم يفترض فيه أن يقترب من الأم أكثر من اقتراب من أى أحد آخر ، بعد رحيل الأب ، ولكنه يرتبط بخالته ، وواضح أن هذا الارتباط يعود إلى الحنان والمودة والحب الذى تغدقه الخالة على ابن اختها ، ولعل هذه الخالة لم تنجب ، فالتخذت أبى قرصافة ابناً لها تبث فيه كل مشاعر الأمومة التى حرمت منها ، وهو ما يفسر لنا ، سرّ تعلق ابن الأخت بها .

كما نلاحظ أن الناس عادة يستجيبون للكلام الذى يسمعونه فى مجال التخويف والترهيب ، دون أن يسألوا أو يتبينوا أو يتأكدوا أو يسمعوا الكلام من مصدره ، ولعل هذه الخالة التى أمرت ابن اختها الراعى ألا يذهب إلى محمد خوفاً عليه أن يغير معتقده ويضله عن طريق آباءه وأجداده فى عبادة الأصنام ، لو كانت قد استمعت جيداً إلى كلام النبى - صلى الله عليه وسلم - وتدبرته جيداً ، لكان لها رأى آخر ، وهو ما حدث بالفعل ؛ بدليل أنها حينما سمعت من ابن اختها ما جرى للشياخ على يد محمد - صلى الله عليه وسلم - غيرت رأيها مع أختها ، وأعلنت إسلامهما ، ودخلتا فى دين الله ولكنها مثل غيرها من الناس ، انساقت وراء الأراجيف التى يروجها الرافضون للإسلام من أهل مكة ، مما جعلها تحذر ابن اختها من الذهاب إلى محمد والاستماع إليه حتى لا يضل .

لا ريب أن هذه خلة زمنية فى كل زمان ومكان أن ينساق الناس وراء الأراجيف ولا يسعون إلى معرفة الحقيقة ، وتدين طبيعة ما جرى ، ولأمر ما كانت الآية الكريمة التى نزلت فى سورة الحجرات .

"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ

فُتَصِّبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (سورة الحجرات الآية ١)

تمثل منهجاً إسلامياً راقياً يتفوق بجهالة العقل والحكمة فى الاستيضاح والاستيثاق مما نسمع وينقل إلينا ، وهناك قراءة أخرى للفعل فتبينوا حيث يقرؤها بعض أصحاب القراءات فتنبتوا ، والتثبت والتبين كلاهما بمعنى واحد ، والغاية منهما هى معرفة الحقيقة ، بدلاً من تصديق ما يلقى علينا ، فنقع فى الخطأ إن كان ما يلقى غير صحيح . وتشير القصة إلى ملمح مهم من ملامح الحياة العملية ، وهو ضرورة الاهتمام والمتابعة والرعاية لأعمالنا حتى ننضج وتكتمل وتصل إلى غاياتها المرجوة . وقد رأينا أن الغنمات التى تركها أبو قرصافة ، قد يبست وضمرت ، فتغير شكلها إلى الأسوأ ، وقل

لبنها، مما أصاب خالته بحالة قلق عليها، ومعنى ذلك أن إتقان العمل مسألة أساسية فى الحياة العامة لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاوزها . وهو ما ألح عليه الإسلام فيما بعد فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم والحديث الشريف . قال تعالى :

"..... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا" (سورة الكهف من الآية ٣٠)

وقال - صلى الله عليه وسلم - إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"

وفى ضوء ذلك يمكن أن نفهم دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم لأبى قرصافة بالبركة ، ومسح ضرع الغنمات وظهورها ، وقد استجاب الله لنبىه - صلى الله عليه وسلم - فامتلات الغنمات شحماً ولبناً ، وهو ما جعل المعجزة تؤثر على الخالة والأم ، فتقران الذهاب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وتعلنان إسلامهما - إن المعجزة هنا دليل مادى تحتاجه الدعوة لدعم موقفها ، وإقناع المدعوين بالدخول إلى ساحتها ، والاستماع إلى مفاهيمها ومعطياتها ، والتصديق بالرسالة والرسول .

ويبقى الملمح المهم فى القصة النبوية وهو دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين إلى الهجرة والتمسك بالإسلام ..فالهجرة فرار بالدين فى ظل الظرف غير المتكافئة بين الدعاة أو المسلمين من ناحية ، وبين أعداء الدين وأنصار الظلام والطغيان من جانب آخر . وعادة ما يكون الأعداء أكثر قوة وأشدّ بأساً، والمؤمنون أقل قوة ، وأكثر ضعفاً مادياً، ولكنهم أشدّ إيماناً وأقوى يقيناً . وهنا يكون الصراع محتدماً وصاحباً ، ويقع على جانبيه كثير من الضحايا والخسائر، ولكن المؤمن فى هذا الصراع لا يهتز ولا يهون ولا يقبل الدنية مهما كانت التكاليف باهظة.

إن الهجرة بالدين ومن أجل الدين لا تنقطع ما دام الجهاد ، فالجهاد هو حياة المؤمن منذ مولده حتى لقاء ربه فى الآخرة . الجهاد هو عمل مستمر ودأب متواصل من أجل إصلاح الدنيا بالدين ، وإقامة الحق والعدل والمساواة بين الناس ، فى ظل الإيمان الخالص بالواحد الأحد ورسوله - صلى الله عليه وسلم - هل هذا هو مغزى القصة التى حكّتها حفيدة " أبو قرصافة" ؟ .

بالطبع هو مغزى رئيسى فى القصة إن لم يكن كل مغزها ، فالجهاد يتوازى مع الهجرة دائماً. هجرة إلى الله ، ومن أجل الله ، وفى سبيل الله .

قصة إسلام عمرو بن العاص

قصة إسلام عمرو بن العاص - ١

يقول حبيب الثقفي : حدثني عمرو بن العاص من فيه . قال :-
لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأبي
ويسمعون مني .

فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو علواً منكراً ، وإني قد رأيت
أمراً فما ترون فيه ؟

قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن تلحقوا بالنجاشي فتكونوا عنده ، فإن ظهر
محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإننا نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت
يدى محمد . وإن ظهر قومنا فنحن من عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا
لرأى . قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم . فجمعنا
له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ،
وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم قد بعثه في شأن جعفر وأصحابه ، قال : فدخل
عليه ، ثم خرج من عنده ، قال : فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري . لو قد دخلت
على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه .

فإنما فعلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول الله .
قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقي ، أهديت
إلي من بلادك شيئاً ؟

قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال : ثم قربته إليه فأعجبه
واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك إنني قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول الله عدو
لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرفنا وخيارنا ، قال : فغضب ، ثم مدّ يده
فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسر ، فلوانشقت الأرض لدخلت فيها فرماً منه ، ثم
قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك .

**قال أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر ، الذي كان
يأتي موسى لتقتله ؟**
قال : قلت أيها الملك أكذاك ؟

قال : وبك يا عمرو !!! أطلعني واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من
خالفه كما ظهر موسى - صلى الله عليه وسلم - على فرعون وجنوده
(حديث صحيح . أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم).

تكشف قصة الحديث الشريف عن الكيفية التى أسلم بها عمر بن العاص ، ذلك الصحابى الجليل الذى اتصف بالدهاء والحكمة والفريسية .
وعمر بن العاص ليس رجلاً عادياً ، فهو زعيم بكل المقاييس ، وصاحب عقلية كبيرة وله تاريخ عظيم ، منذ إسلامه – بل قبل إسلامه – حتى وفاته .

فعمر هو أحد فرسان الفتح الإسلامى ، الذين نقلوا إلى العالم خارج الجزيرة العربية نور الإسلام ، وهو فاتح مصر ، فأهداها نعمة الإسلام ، وحرّرها من الرّومان الطغاة الغزاة ، وهو الذى أعاد الروح والحياة للنصرانية المضطهدة فى مصر ، فلولا فتح عمر لمصر ، لظلت النصرانية ديانة سرّية يقوم عليها الكهنة فى المخابىء البعيدة والمنافى الغربية ، ولكن عمراً نقلها إلى النور والعلن ، بعد أن قضى على الرّومان الظلمة الذين اضطهدوا النصرانية فى مصر ، وفرضوا مذهبهم الملكانى على أهلها ..لذا يقال إن النصرانية هدية الإسلام إلى نصارى مصر!

وعمر بن العاص له تاريخ حىّ وممتد فى الفتوحات الإسلامية ، وفى السياسة التى خلقت صراعاً بين الصحابة – رضوان الله عليهم ..وكان له فى العديد من حوادث الأمة الناشئة الناهضة نصيب ، تحدث عنه المؤرخون وأكثر ، وما زالوا يتحدثون .

والقصة الواقعية التى بين أيدينا تكشف عن مرحلة أخرى من حياة عمر بن العاص رضى الله عنه ، وهى مرحلة الجاهلية ، أى قبل دخوله إلى ساحة الإسلام وواحته الخضراء فقد كان زعيماً مهماً فى قرينش ، وفارساً من فرسانها المبرزين ، وأسهم بقدر كبير فى المعارك التى خاضتها قرينش ضد النبى – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين ، فى المدينة غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، التى انهزمت فيها قرينش ، ورجعت تجر أذيال الخيبة والعار . وكانت هذه الغزوة مفصلاً مهماً فى حياة عمر ، فقد فكر فى الانتقام من المسلمين ، ولكن تفكيره انقلب إلى هداية له فدخل الإسلام ، وصار جندياً من جنود الله يدافع عن الدين الحنيف ، ويقود الجيوش الإسلامية إلى نصر تلو نصر ، وإلى فتح يعقبه فتح ..

لقد كان عمر فى الجاهلية زعيماً بحق ، وبذل جهداً جباراً فى مقاومة الإسلام ليس داخل مكة فى ولكن خارجها ، وقد ذهب إلى الحبشة ليثنى النجاشى امبراطور الحبشة عن قبول المهاجرين المسلمين وكانت له علاقة حميمة معه ، وأراد أن يستثمر هذه العلاقة بعد هزيمة الخندق ، ليؤنئ المسلمين ويسئء إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ولكن خاب ظنه ، وأخفق سعيه ، مما كان سبباً فى هدايته وإيمانه ...

لقد كانت علاقته قوية بالنجاشى ، وكان يقدم له هدايا عربية يحبها الامير'طور وهى الجلود المدبوغة التى يسميها الأدم ، ففكر أن يهديه شيئاً منها ، ويطلب منه أن يسلمه عمرء بن أمية الضمرى رسول رسول الله إلى النجاشى ، ليقتله ، فيشفى بذلك صدر قريش بعد هزيمتها فى غزوة الخندق ، ولكن النجاشى لم يمكنه من ذلك ، بل غضب عليه غضباً شديداً ، حتى تمنى عمرء أن تنشق الأرض وتبتلعه ...

و يفاجأ عمرء أن النجاشى يؤمن بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويخبره أنه يأتيه الناموس الأكبر ، أى الوحي ، الذى كان يأتي لموسى ، ويستنكر النجاشى أن يسلم رسول رسول الله ، إلى عمرء ليقتله ... إنه ينهر عمرأ ويطلب منه أن يطيعه ويتبع محمداً ؛ فإنه والله لعلى الحقّ ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى - صلى الله عليه وسلم - على فرعون وجنوده ... فماذا فعل عمرء ؟

إسلام عمرو بن العاص - ٢

بعد أن غضب النجاشي على عمرو بن العاص ، لأنه طلب منه أن يئكنه من رسول رسول الله فيقتله ، وقال له النجاشي إن محمداً على الحق وسينتصر على من خالفه ، قال عمرو للنجاشي :

"قلت" أفتبأبىعنى له على الإسلام ؟

قال : نعم ، فبسط يده فبأبىعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابه ، وقد حال رأيي عما كان عليه ، وكتمت أصحابي إسلامي .

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد استقام النسمة، وإن الرجل لنبي، اذهب والله فأسلم، حتى متى؟

قال : قلت: والله ما جئت إلا لأسلم ، قال : فقدمنا المدينة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، وبأبىع، ثم دنوت فقلت :

يا رسول الله إني أبأبىعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر؟

قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "يا عمرو . بأبىع فإن الإسلام يئب كل ما كان قبله و إن الهجرة جب ما كان قبلها " .

قال : فبأبىعته ، ثم انصرفت ...

.....

تمثل أحداث القصة المتتابعة سرداً واقعيًا يستشعره القارئ أو السامع ، ويحسّ من خلاله يصدق الرؤية التي ذكر صاحبها ما يتعلق به وبغيره، في سياق الوصول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجل إعلان الإسلام ، والدخول إلى ساحته الرحبة .

ونستشعر شيئاً من دهاء عمرو بن العاص ، وهو يسرد لنا قصة إسلامه ، فقد رأى النجاشي ، وهو الامبراطور الذي يحكم بلاداً بعيدة ، ولا ينتسب إلى العرب

بصلة اللهم إلا الجوار البعيد إذا عددنا الحبشة مجاورة للجزيرة العربية ، هذا الامبراطور يشهد لمحمد و يعلن عن صدق رسالته ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن محمداً على الحق و سينتصر على من خالفه ، كما انتصر موسى عليه السلام على من خالفوه ..عمرى يسمع هذه الشهادة و ذلك الإعلان و تلك النبوءة بانتصار محمد ، فيستجيب للنجاشى ، و يبایعه على الإسلام بعد أن رأى شهادة صادقة تعبّر عن الحقيقة التى حاول عمرو أن يتجاهلها كثيراً مع قومه ، وفى سبيل هذا التجاهل شنّ أكثر من حرب على الرسالة و الرسول فانتصر فى بعضها القليل ، وانهزم فى بعضها الكثير ، وهو فى الحالين لم يقض على الدعوة أو الداعية ، بل إن الإسلام يتمدد مع مطلع كل صباح ، و ينتشر فى كل مكان ...

إن مبايعة عمرى للنجاشى تمثل الصورة الدرامية إن صحّ التعبير لرجل تحول مائة وثمانين درجة فى مقصده و معتقده ، فقد ذهب إلى النجاشى ليؤنئى المسلمين ، و يقتل عمرى بن أمية الضمرى ، و يسّر فى الوقت نفسه أصحابه و عشيرته من قريش ، بل أهل مكة جميعاً ، ولكنه لم يحقق شيئاً من ذلك ، و وجد النجاشى فى صف محمد و أصحابه بل يبایعه ، بأن الانتصار الساحق آت لا محالة ، كما انتصر موسى عليه السلام ؛ وهنا لا يجد عمرى غضاضة فى إعلان الإسلام على يد النجاشى ، و يخرج من عنده كاتماً إيمانه حتى يصل إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيعلن إسلامه أمامه .

إن كتم عمرى لإيمانه حتى يصل إلى الرسول عليه الصلاة و السلام ، يصنع حالة من التشويق القصوى و أيضاً الترقب لدى المستمع أو القارئ الذى يريد أن يعرف ، لماذا خرج عمرى من عند النجاشى ، ولم يخبر أصحابه بما حدث منه أو بأمر مبايعة للنجاشى على الإسلام ، و تتابع معه القصة حتى يلتقى بخالد بن الوليد ، الفارس الموازى فى قريش الذى حارب أكثر من معركة ضد المسلمين ، و حقق

انتصاراً فى غزوة أحد فرحت به القبائل الجاهلية... ولكنهما حين يلتقيان بيدوان وقد اتفقا على أمر واحد دون أن يعرف أحدهما ما ينويه الآخر، وهنا تكون مقولة خالد رداً على سؤال عمرى: إلى أين يا أبا سليمان؟ مقولة ذات مغزى وذات دلالة: "والله لقد استقام المنسم" مثل عربى يُضرب حين يتضح الأمر وتستبين أبعاده وجوانبه، فلا يكون هناك خفاء ولا التباس ولا شك، وخالد يقصد أن الإسلام قد صار هو الطريق الذى يجب أن يسلكه ولا طريق غيره، بعد زمن طال فيه الصراع، واتسعت الدعوة ودخل خلق كثير فى دين الله... وبدأت تبشير الفتح الأكبر... فتح مكة، وانهزام المعسكر الجاهلى هزيمة ساحقة إلى الأبد!

إنذاً عمرى يلتقى مع خالد على الإسلام والذهاب إلى المدينة لإعلانه وهنا يبدو الأمر الذى كتبه عمرى فى سبيله إلى الظهور، أو قل بلغة القصة إن العقدة بدأت تنحل، وتقترب القصة من ذروتها... لقد ذهب الرجلان إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فبايع خالد بعد أن أسلم ثم جاء الدور على عمرى... وكان عمرى الذى يستشعر قسوة ما فعل ضد المسلمين يريد أن يثق أن هناك أملاً فى غفران ذنوبه، وفى صفحة جديدة بيضاء ونقية داخل ساحة الإسلام

"إني أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر؟" أى إنه يريد أن يغتسل من الماضى، أما المستقبل فسيتحمل مسئوليته كاملة.

ولأن الإسلام دين الرحمة، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم يؤكد لعمرى أن الإسلام يجب أن يقطع، أى يحو ما كان قبله من ذنوب، وإن الهجرة سعياً من أجل الدين تجب ما كان قبلها وتمحوه، وهو ما جعل عمرى يبايع، ثم ينصرف.

إسلام عمرو بن العاص - ٣

بعد أن أسلم عمرو بن العاص ، وبذل جهداً كبيراً فى سبيل الدعوة والفتح
حضرتة الوفاة ، ويحكى ابن شماسة المهري ، فيقول :

فحضرنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه
إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه ، أما بشرك رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - بكنا؟! أما بشرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكنا!!؟

قال : فأقبل بوجهه فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن
محمداً رسول الله ، إني قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتنى وما أحد أشد بُغضا
لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - منى ، ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه
فقتلته ، فلومتّ على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقلت : ابسط يمينك فلأبأبعك ، فبسط يمينه .

قال : فقبضت يدي ، **قال** : " مالك يا عمرو؟! " قلت : أردت أن
أشترط . **قال** : تشترط بماذا؟

قلت : يغفر الله لى . **قال** : " إما إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن
الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله " .

وما كان أحد أحب إلى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أجل فى
عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما
أطقت ، لأنى لم أكن أملاً عيني منه ولو متّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من
أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها ، فإذا أنا متّ فلا تصحبنى
نائحة ، ولا نار ، فإذا دفنتمونى فشنّوا على التراب شنّاً ، ثم أقيموا حول قبرى قدر
ما تنحر الجزير حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى " .

نحن هنا أمام نفس صافية تعبر عن ذاتها بأصدق ما يكون التعبير، وهي تفارق الدنيا، وترحل إلى الآخرة. إن عمر بن العاص وهو فى سياقة الموت أو حضرة الموت يبكى طويلاً، ويحوّل وجهه إلى الجدار كى لا يراه المحيطون به ممن يجلسون بجواره، ويشهدون احتضاره، ومثل عمر حين يبكى بكاء طويلاً خوفاً من الله . وهو الصحابى الجليل الذى أفنى حياته الإسلامية فى خدمة الإسلام والمسلمين ؛ ونشر الدعوة فى أكثر من ناحية من نواحى الأرض ، يدل على مدى خوفه من الله ، وخشيته من لقاءه مع كل ما قدمه وبذله من جهد وجهاد ...

إن بعض الناس لا يعبأ بما فعل ، ولا يفكر أصاب خيراً أم شراً ، ويمضى على هواه ويظن أن المسألة فى الآخرة سهلة وبسيطة ، ولسان حالهم يقول: إن الله غفور رحيم. وما هكذا تكون الأمور.

صحيح أن رحمة الله وسعت كل شىء، ولكن الأخذ بالأسباب ضرورة ، والتوبة النصوح لازمة والعمل الصالح مقدمة ، وبعدها فإن الأمل فى رحمة الله باب لا يمكن إغلاقه ، أما الذين يسيرون على هواهم ، ويظنون أن كل شىء رهن إشارتهم ، فهم واهمون . إننا لا نتألى على الله ولا نستبق رحمته ، ولكنه سبحانه أمرنا بالعمل الصالح واجتناب العمل الطالح .

وقال تعالى :-

" وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة التوبة الآية ١٠٥)

وقال تعالى :-

" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ"

(سورة الزلزلة الآيات ٧-٨)

ومن هنا نفهم سرّ بكاء عمر بن العاص ، وهو على فراش الموت ، وهو سرّ منهج الصحابة رضوان الله عليهم فى خشيتهم من ربهم ، وهو ما تحدث به الخليفة

الأول ؛ الصديق أبو بكر، الذى كان يشير دائماً إلى أنه لا يأمن مكر الله ، مع أنه من المبشرين بالجنة ..

ونلاحظ أن التبشير بالجنة هو فتح لباب الأمل فى رحمة الله ؛ فى الوقت الذى يستشعر فيه المسلم صعوبة القبول ؛ بسبب أحداث أو أخطاء مضت ، وهما نحن نرى ابن عمر بن العاص ، يسعى إلى بث الأمل فى نفسى أبيه .

و يقول له : أبتاه ، أما بشرت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكذا ؟ أما بشرت رسول الله – صلى الله عليه وسلم بكذا ؟

ويكون كلام ابنه سبباً فى تفاؤله ، والعودة بوجهه إلى من حوله ذاكراً أن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ... يقصد أساس العقيدة والتوحيد وصدق الرسالة والرسول ، ثم يلتفت إلى ماضيه أو قصة حياته فيذكر أنه مرّ بثلاث مراحل ، الأولى كان فيها مبغضاً شديداً للبعض لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ، وتمنى لو تمكن منه فقتله ، ولو كان استمر على هذه الحال لكان من أهل النار .

الثانية لما جعل الله الإسلام فى قلبه جاء فبايع الرسول – صلى الله عليه وسلم فلما بسط بسط يده للمبايعة قبض عمر يده ليشتراط الغفران ، فأخبره الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الإسلام والهجرة والحج ، كلها تهدم ما قبلها وتجعله كأن لم يكن .

أما الحال الثالثة والأخيرة هى حبه للرسول – صلى الله عليه وسلم – " ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملاً عينى منه إجلاله ، ولو سألت أن أصفه ما أطق " ويرجو عمر أن يكون موته على هذه الحال طريقه إلى الجنة .

إن عمر بن العاص ، الذى ملأ الدنيا وفتح الآفاق ، يتواضع ويخشى ويبكي ويقرّر مبادئ مهمة فى توديع الراحلين من الأحياء إلى عالم الدار الآخرة ، فيوصى

بأنه إذا مات لا تصحبه نائحة ولا نار، كما كان يفعل أهل الجاهلية، ويطلب أن يصبّ عليه التراب صبّاً عند الدفن، وأن يقيم الناس حول قبره وقتاً يساوى القدر الذى تذبح أو تنحرفيه الإبل الجزير؛ حتى يستأنس بهم وينظر كيف يراجع الملائكة! لاشك أن حياة عمر بن العاص الإسلامية حافلة بالعطاء والجهاد والمواقف التى تقدم العبرة والعظة وكان فى لحظة احتضاره أروع وأعظم لمن يتعظ. رضى الله عنه ورحمه.